قصة ديك الجن الحمصي

حكاية غرام شاعر قديم أخذت وقائعها الرئيسية من التاريخ

ابتدأت القصة في الربيع · ألا تعرفون ذلك الربيع — ربيع سوريا ؟ ألا تذكرون السماء زرقاء صافية بعيدة القعر ؟ ألا تذكرون اللذة التي يشعر بها الانسان حينما يضطجع عَلَى العشب في احد المروج أو عَلَى ضفة النهر ويضع يديه تحت رأسه وينظر الى السماء الزاهرة ليلاً ويعد نجومها ويستغرق في احلام فردوسية ، فيشعر بتخدر في نفسه وكيانه ، فلا يدري الا وقد امتزجت خلاصة روحه بالحان الحرير والخفيف وبصيص النجوم وذرات الاثير ؟

أجل · ابتدأت قصتنا في الربيع حين كان النهر والمرج والبستان والانسان تتلذذ جميعاً بانفاس النعامى وارواح الخزامى · حين تقترب الشمس من الارض اقتراب الحبيب من الحبيبة

لجليدي عن القلوب ، فتتماص اعصاب القلب من قيودها الباردة وتسعى الى الحب ونوره والهيام ولهيبه ظامئة ، مشغوفة ، مستسلمة

. . . . . .

جلس عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن مع اصحابه بعد العشي في منتزه الميماس عَلَى مرج بسطت عليه الازهار طنافسها وأمالت اعناقها صاغرة لحاقة من اخوان الصفاء وشبان الظرف والادب خرجوا مع شاعرهم الى الروض ليغبقوا آمنين غفلات دهرهم وقد استراحت نفوسهم عَلَى وسائد النسيم المخملية واصغت آذانهم الى نعيم اوتار اللاعبين وانشاد المغنين . وديك الجن بينهم يتمايل طرباً ويهتز عجباً وينشد المقطع بعد الاخر من اشعاره النفيسة التي فتنت اهل العراق بعد اهل الشام وخرّ لها ابونواس ساجداً خاضعاً .

دارت الخمرة بين المتنادمين في اقداح كاد ان يشربها النسيم قبل وصولها الى ثغور الشاربين وامتزجت انات الطرب بانشاد الالحان الحجازية وزنة الاوتار وحديث التدامى . فتألفت من هذا جلبة لطيفة شعرية تشق عباب السكينة وتشبه لحناً موسيقيا مركب الانغام ، صعب التوقيع ، من ألحان الفها بعد أجيال فاغنر وبيتهوفن

ولما صمت المغنون وكف العازفون ليرتاحوا اقترب بكر بن وستم ، وهو شاب جميل الطلعة لبس الكياسة وتجلبب بالظرف وانتصق بديك الجن يخلص له الود ويحسن النية ، واسرّ الى صديقه الشاعر

— ان قلبي منقبض هذه الليلة رغم الالحان وسورة الراح · وكأني بصوت يهمس في داخلي ان يد القضاء سيرت منذ الليلة نجم حياتي نحو الافول ·

فقال له ديك الجن متعجباً ·

— اراك عَلَى غير هدى هذه الليلة يا صاح · نحن شبان فلماذا نهذ بذكر الموت ؟

وسمع احد الندامى الماجنين كلمات ديك الجن الاخيرة فهتف مغنياً بصوت يتهدج ويتلجلج سكراً وحمية هذا البيت

— ولا تبكين عَلَى ناسكٍ وان مات ذو طربٍ فابكه

فقهقه الندامى من الضحك وعلت جلبتهم ولغطهم · وانشد فريق منهم في اثر الاول بيتاً آخر باصوات جافية نافرة وقد سرت في عروقهم حمى الطرب وجلست عَلَى عرش دماغهم سلطانة الخمرة

— رحمة العود والجنوك عليه وصلاة القانون والمزمار

وكانت ألحانهم شاذة عن القاعدة متنافرة ضحك لها الصدى ضحكة سريعة مردداً بعدهم بلهجة المستهزىء — والمزمار ·· والمزمار ·· والمزمار ··

فابتسم ديك الجن وبسط يده · فهدأ الندامى هدوء الطبيعة قبيل العاصفة فقال الشاعر ·

— قد جئنا الى هنا يا اخوان لنسر ونطرب · ولكن هذا المسكين بكراً

حلول أجله · اننا في عصر الشباب يا بكر · والشباب ربيع الحياة · وبه تزهر الامال · فلماذا بدأت بقطع براعم امالك قبل ان تزهر ؟ اذا كنت تهوى فلا تستصعب نيل من تحب · وان كانت لك بغية صعبة المنال فلا تيأس من الظفر بها فان كل شيء سهل المنال في الشباب · أترون هذه السماء ؟ انتم تظنونها بعيدة · ولكني استطيع ان انالها بيدي · أتريدون ان أثب وثبة فابلغها · اكاد والله افعل ذلك واجني لك قطاف الجوزاء وازهاراً من المجرة · هات الكأس يا صاح ولنشرب · املأ كأسك يا بكر · اشرب الخمر فترى السماء تحت رجليك والشموس حواليك وترى ذاتك جالساً بين حوريات النعيم تقبض عَلَى ازمة القضاء واعنة الاماني · اشربوا يا اخوان ·

افرغ الندمان الكؤوس وهتفوا وقد عزفت الاوتار بشدة خفق لها قلب السكينة فطار شعاعاً · واذا بصوت زاجر جهوري قد علا من وراء المتنادمين هاتفاً بلهجة التهديد والتعنيف ·

— ويحكم يا اشقياء يا بني الطغام · هلاّ كففتم عن المنكرات وامتنعتم عن شرب الخمرة وازعاج المؤمنين في ما تفعلونه من القبائح علناً ·

فجمد القوم وخمدت نار طربهم ونشاطهم فظلوا ساكتين ما عدا واحد منهم قال واجلاً بلهجة ضعيفة ·

— اهلاً ومرحباً بابي الطيب · تفضل يا مولانا · عَلَى الرحب والسعة · فزمجر ابوالطيب غضباً ودنا منهم فابرزت الظلمة ملامحه فظهر بقربهم قصير

القامة دميم النظر وقال بصوت يتهدج غضباً وبرفقته رجل لا يبان منه سوى عمامته الكبيرة ·

— اذا لم تتفرقوا في الحـال وتكفوا عن شرب المسكرات والطرب أوقعت بكم النكال · وقد اتيت بكاتب القاضي معي هذه الليلة ليشهد عَلَى ما تفعلونه فاذا عدتم الى مثلها ضربكم الحد وفي اولكم ابن عمي الحليم عبد السلام ·

سكت الندماء · ولكن تذمرهم الصامت كاد ان يملأ الفضاء واوشك غضبهم ان يتجسم ويكبر فيصل الى ما لا تحمد عقباه · فتدارك ديك الجن الامر وقال لاصحابه ·

— لقد اكتفينا الليلة من الطرب فلننصرف · فقد شاء ابن عمي ان يذكرنا بطريقته اللطيفة ان الحياة ليست كلها طرباً ولهواً فشكراً له عَلَى غيرته واهتمامه · هلمّ بنا يا بكر · وابقوا انتم يا اخوان اذا اردتم فلا بأس عليكم · فان ابن عمي لا يريد ان ينغص عليكم ليلتكم وانما يقصدني بلطفه وحدي ·ويهتم بهدايتي دونكم · استودعكم الله ·

قال هذا ونهض من بين اصحابه مع صديقه بكر بن رستم · وبعد هنيهة ابتلعتهما الظلمة الرهيبة فاختفيا فيها كأنهما ذابا واندمجا مع دياجيرها ·

. . . . . .

لم يمشِ ديك الجن مع رفيقه عَلَى طريق المدينة بل سارا يتوغلان في غياض الميماس حتى وصلا الى الجسر قرب الطاحون التي بناها الرومانيون

يا كورة الازهار - - للمصور انجولراس

عَلَى العاصي فقطعا الى الضفة اليسرى وسارا في طريق غير مطروقة متجهين نحو الشمال كأنهما يقصدان ان يهربا من العمران ويبتعدا عن الانسان

وبعد قليل خرجا من منطقة الرياض والبساتين ووصلا الى القفر وهو سهل صخري عَلَى مقربة من ضفة العاصي اليسرى به تنتهي اطراف هضبات لبنان واذيال آكام عكار . وانبسطت امامهم الارض مسقوفة بسما الغيوم تزلج عليها العين من افق الى آخر

وكانت الظلمة الباهرة تغطي الغبراء . وقد تفتحت عيون الليل الساهرة تفتح الاكمام . وتنفس فؤاد السكون الصعداء . وكانت السكينة صافية رائقة روق الماء الزلال غامرة العالم كله بامواجها السحرية متصاعدة حتى السماء جالسة عَلَى عرش الارض بسلطان

بعد ان سار ديك الجن ورفيقه مسير نصف ساعة صامتين تتلاعب بروحيهما يد الحزن غير منصتين الى همس السكينة أو مهتمين بسماع ما تنفسه الارض من الاسرار اذا بالطريق قد قادتهما الى ضفة العاصي . فجلسا ليستريحا وقد طفح قلب ديك الجن من الحزن ونضح من الاضطراب والحنق عَلَى ابن عمه وما يأتيه نحوه من الاضطهاد . فقد كان ابو الطيب يتعقبه في كل خطراته حتى انه ليعكر عليه كل مجلس صفو ويثقل عليه وعَلَى خلانه ويستخف بهم امام الناس .

ولكن اضطراب نفسه ما عتم ان نعس في داخله فخفت وطأته امام السكينة الملطفة المحيطة بالارض .

وفي هذه السكينة المكرة بهمس الحرير · وفي تلك الظلمة الملطخة ببصيص النجوم تمايلت عَلَى الشاطىء الثاني اشجار روض لم تتبينها العين في الظلمة الا اضامة واحدة · فأثر لونها الكثيف في دماغ ديك الجن وخيل له انه يستنشق من تلك الغابة رائحة طيبة لطيفة تخضع نفسه بتأثيرها ولذتها وانه يشعر في تلك الرائحة الزكية شعور من يقبل غادة نائمة قد انفتحت شفتاها الورديتان نصف فتحة

وخيل له ايضاً ان ما يسمعه من خرير المياه ليس خريراً بل انما هو قلب السكينة يدق دقات مسموعة في نفسه · وان النسيم الذي يلامسه ليس نسيماً بل انما هو جسم الظلمة الرقيق وقد طعنته رماح النجوم فالتصق بجسم ديك الجن مذعوراً متشبثاً مستغيثاً ·

واتصل باذن نفسه رنين الليل السري يدوي كأنه هتاف قلوب الاف من العاشقين الذين لوعهم الجوى · وسمع ذلك الرنين الاصم الشفاف آتياً من اعماق الظلمة الناعمة كأنه رنة أجراس صغيرة فضية او طنطنة اوتار قيثارات صغيرة تحركها انامل الاثير · وهذه الطنطنة وذلك الرنين هما صدى ألحان تنشدها الارض في عناق السكينة بالاف من الاصوات السحرية· أوهما تدفق دم الحياة في العروق المتهيجة ·

وبينما هو في نصف غيبوبة اذا برفيقه بكر بن رستم قد وكزه مشيراً الى الجبة المقابلة · فانتبه وتململ متوجعاً كأنه زهرة اقتلعتها يد اليقظة

لم تصمت بل ازدادت جلاء وقوة آتية عَلَى صهوة النسيم من عبر النهر وقد ابتلعت ألحانها انغام الحرير والحفيف وتدفقت موجة واحدة صاعدة الى السماء

اصاخ ديك الجن بسمعه قليلاً فادرك ان هذه الالحان الجميلة ليست من عالم الاحلام بل من عزف البشر · وتمعن قليلاً في الظلمة فرأى من خلال اشجار الروض بصيص نور تغاليه ظلال الظلمة ورأى عَلَى ذلك النور شبه اشباح تروح وتجيء وتتمايل كأنها جنيات ترقص امام فريستها

فنتشط كمن حل من عقاله وقال لبكر

— هلم بنا نقصد تلك الغابة · فاني اخال ان الفردوس قد انتقل من السماء الى الارض وان رضوان وحورياته قد احتلوا هذه البقعة الى وقت قصير

اسرع الصديقان يتطلبان معبراً في تلك الجهة التي لم يطرقاها من قبل · وبعد قليل وصلا الى الجسر المعروف بجسر طاحونة خرخر فقطعاه عائدين الى منطقة الرياض والبساتين · وعرض لهما بعد الجسر مرج كبير عَلَى ضفة العاصي فسارا تغرق ارجلهما في مخمل عشبه الرطب قاصدين غابة الحور التي بدأت تتجسم اشجارها امامهما كقامات اناث الجبابرة

بين الاشجار عَلَى مرجة صغيرة تجلت للرفيقين نار موججة يشب نورها من جهة الى جهة ويلتطم بالظلمة العنيفة فيتهادى قليلاً ثم يسري في عروقها ويطرد الظلال الكثيفة الى تحت الاشجار البعيدة الهاجعة · ثم تضيع اطرافه بين زخارف الاوراق والاغصان

وعَلَى مقربة من النار فتيات في ثياب بيضاء يشبهن سرباً من عذارى

الجن قد جلسنَ في حلقة يعزفنَ عَلَى المعازف وينشدنَ الاغاني باصوات مطربة وفي وسطهن غادة يشع منها الجمال ويقطر منها الدلال ترقص عَلَى انغام الالات رقصاً مدهشاً فتأخذ حركاتها بمجامع القلوب

نظر ديك الجن الى الفتاة الراقصة ولم يستطع ان يميل عنها نظره فلبث جامداً يتطلع اليها كأن نظرته قد سمرت الى قامتها الجميلة بمسامير سحرية. وشعر ان روحه قد فارقت جسده وسالت بشكل نسمات لطيفة بين قدود تلك الغانيات حتى وصلت الى الفتاة الراقصة فعانقتهـا ملتفة حولها في عاصفة الرقص .

ولما فترت حركات الراقصة الحسناء نهضت الفتيات ما عدا العازفات وألفنَ حلقة حولها وبدأنَ برقص جميل متناسق فاخذت الفادة مزهراً وداعبته باناملها اللطيفة وانشدت بصوت جميل بيتين وضع لهما لحناً مطرباً احد العراقيين فاشتهر اللحن والبيتان لديك الجن

انت حديثي في النوم واليقظة اتعبت مما اهذي بك الحفظة
كم واعظ فيك لي وواعظة لو كنت مما تنهاه عنك عظة

فسرى صوتها الجميل في عروق ديك الجن حتى بلغ صمامة قلبه ففتحها فطارت بقايا الحزن من فؤاده واحتلت مكانها عاطفة واسعة لطيفة ادقت جسمه وروحه وكادت ان تصهر مهجته وتمددهـا لتسع كل المسكونة وتغمرها بالحب واللطف . فصاح الشاعر من قلب قريح وقد برّح به الطرب

وقع هذا الصوت عَلَى الفتيات وقوع موجة هبطت فجأة عَلَى النار فاخمدتها · فصرخت الفتيات خشية وروعاً وتراكضن مذعورات من هذه المباغتة · ولكن الفادة التي كانت ترقص بينهن سكّنت روعهن وأخذت مصباحاً فتقدمت نحو الجهة التي صدر منها الصوت وصاحت متسائلة ·

— من الرجل المخترق حرمة الادب ؟ وماذا يبتغي في سكون الليل ؟

فتقدم الرفيقان خارجين من مكمنهما · وامعن الشاعر النظر في الفتاة فاذا هي عَلَى جمال لم يخلق الله مثله · فتحركت في فؤاده موجة كبيرة سخينة تلاطمت اطرافها عَلَى شواطئ جوانحه ولم تتكسر بل تدفقت مياهها — مياه الهيام والخشوع والجوى متغلغلة في كل جارحة من جوارحه · فقال وهو يشعر بحركة لم يألفها في جنانه

— عفواً ايتها الحسناء · نحن غرباء عن هذه البقعة · وقد عطشنا في طريقنا ورأينا هذا النور فقصدناه مستسقين

— ويحك يا طفيلي · أأتيتنا تستسقي والعاصي امامك · ما اقبح عذرك ·

فوجم ديك الجن وقد اسقط في يده وخفق قلبه من نظرات الفتاة العابسة · فتدارك بكر بن رستم الامر وقال ·

— لا تلومينا يا زين النساء · فهذا ديك الجن الشاعر وانا رفيقه · قد كنا ماريين فسمعناك تترنمين ببيتين لرفيقي · فجذبتنا نارکم كما يجذب النور الفراشة · وهل في هذا من حرج ؟

فابتسمت الفتاة وقالت ·

— لا أخالكما الا طفلين · ولو كان رفيقك شاعراً ما كان طفلياً ·

— انه وعيشك شاعر حمص الذي فتن أهل العراق

— اذا كان رفيقك الشاعر الذي تذكره فليرتجل لنا ابياتاً تؤكد صدق دعوته ·

قالت الجارية هذا والتفتت الى رفيقاتها فاقتربن منها وقد سكن روعهن لدى رؤية الشابين وعلمهن انهما لا يريدان شراً

فابتسم ديك الجن ونظر الى اعماق عيني الفتاة · وكأن ما رآه هنالك من المعاني والاسرار هاله فمسح جبهته وقال مرتجلاً ·

قولي لطيفك يثني عن مضجعي وقت الوسن
كي استريح وتنطفي نار توهج في البدن
دنف تقلبه الاكف عَلَى فراش من شجن
أما انا فكما علمت فهل لوصلك من ثمن

فاحمر وجه الفتاة قليلاً وقالت ·

— الاشعار لا بأس فيها · ولكن من لنا بمن يقنعنا انها لك وانك لا تحفظها من قبل فرويتها لنا لتباهي بها ·

— لقد كنت استطيع ان ارتجل سواها اكراماً لك ايتها الحسناء · ولكنك قد تنسبينها كلها لسواي كما نسبت هذه · بيد اني سأغير لك

ولا منازع ·

— هات لنرى

فانشد ديك الجن بصوت متهدج من الهيام وهو لا يرفع نظره عن الفتاة

قولي لطيفك يثني عن مضجعي وقت المنام
كي استريح وتنطفي نار توهج في العظام
دنف تقلبه الاكف عَلَى فراش من سقام
أما انا فكما علمت فهل لوصلك من دوام

فسرت ابتسامة طافحة في وجه الفتاة وقالت ·

— أحسنت · ولكن تغيير القافية مرة واحدة لمن اسهل الامور فهل لك ان تغيرها مرة اخرى لاصدقك ؟

— ومرتين اذا شئتِ يا كريمة النسب · ثم انشد

قولي لطيفك يثنيّ عن مضجعي وقت الرقاد
فعسى انام وتنطفي نار توهج في الفؤاد
دنف تقلبه الاكف عَلَى فراش من قتاد
امـا انا فكما علمت فهل لوصلك من معاد

ثم انشدها مرة اخرى مغيراً كلمات آخر الابيات عَلَى هذه الصورة ·

المجوع · الضلوع · دموع · رجوع

فاطرقت الفتاة قليلاً ثم قالت ·

— قد صدقت انك شاعر ماهر · ولكن كونك شاعراً لا يسوغ لك

ان تهجم عَلَى اوانس حرائر في مجالسهن المصونة .

— ولكنكن ايها الحسان جالسات في البرية لا في اخدار كن

— ان هذا المكان وما حوله مع ذلك الدير الصغير والقرية التي بجانبه واسمها الدوير هو حمى لنا نحن النصارى لا يتخطاه المسلمون اكراماً لشواعرنا . فهو لنا منزل واحد بلا أسوار . وخدر لا يحجبه الا الوقار . وقد جرت العادة ان نخرج اليه نحن عذارى النصارى من المدينة في بدء الربيع يوم الاثنين اول الصوم الكبير الذي ندعوه نحن « اثنين الراهب » ونعيد الكرة عليه بين كل آونة واخرى فنقضي نهارنا وليلتنا بالنزهة واللهو . فجئت الليلة انت ورفيقك وافسدت علينا لهونا . ولولا انك من اهل العلم والادب لطرحت صوتاً يخف اليه كل سميذع من شبابنا فيطردونكما طرد الكلاب . اذهبا في طريقكما .

— ولكن من يبصر جمال وجهك ولا يضل الطريق ؟

— هوذا الطريق امامكما تسلكانها حتى تبلغا القرية ومن ثم تريان عَلَى ضوء النجوم قبب مقام السيد خالد بن الوليد فلا تضلان الطريق

— شكراً لك يا ربة الخدر . ولكن هل اذا صرت نصرانياً يتاح لي ان اخترق حرمة هذا المكان واشاهد جمال هذا الوجه الفتان ؟

— استعنت عليك بالله ايها الشاعر الماكر

— ان الله الذي استعنت به جميل ويحب الجمال . وقد قال نبينا —

وارى روحي تحوم حول روحك حتى تكاد ان تمازجها · فروحي وروحك مؤتلفتان رغم تفاوت الاديان · وقد قال نبينا ايضاً — « المرء على دين خليله · »

ثم التفت الى رفيقه وقد طفح وجهه بشراً وقال

— ايه بكر بن رستم سليل الاكاسرة الكرام · احفظ عني هذه الابيات التي اوحتها اليّ محاسن هذه الانسة الكريمة ·

وصمت قليلاً والتفت نحو النهر والظلمة وما وراءها من السكينة الخاشعة كأنه يستمد عوناً · ثم تطلع الى الفتاة بنظر باهت وانشد

لما نظرتِ اليّ عن حدق المها وبسمتِ عن متفتح النوارِ
وعقدت بين قضيب بانٍ أهيفٍ وكثيب غصنٍ عقدة الزنارِ
عفرت خدي في الثرى لك خاضعاً وعزمت فيك على دخول النارِ

ثم صمت · وبعد دقيقة سكوت حيى الفتاة مودعا وسار مع رفيقه · ولكنه ما عتم ان وقف والتفت نحو الفتاة سائلاً مستعطفاً

— هل لك يا ذات البهاء ان تنعمي عليّ بمعرفة اسمك · لكي استنزل به الالهام في خلوات الوحي ·

فتضاحكت الفتيات ولكن الفادة أطرقت وقد توردت وجنتاها وقالت بصوت يقرب من الهمس ·

— اسمي ورد بنت الناعمة

— ما احيلى هذا الاسم واطيب شذاه · منذ الان اصبح اسمي عبد

ورد لا عبد السلام ·

. . . . .

هبَّ ديك الجن من فراشه قبل الفجر تاركاً اياه كما يترك السجين ظلمة الحبس بعد ان حاول طول الليل ان ينام فلم يغمض له جفن · وفي قلبه من حب ورد ما لا يسعه فؤاد بشري الا اذا كان قلب شاعر كبير! يضم الكائنات ويغمرها ·

انه احبها بكل جوارحه منذ اول نظرة · ولكن اليأس كان يمكر ينبوع اماله كلما فكر في حب نتائجه عقيمة · كيف لا وهو حب شاعر مسلم مندفع مع اهوائه لفتاة نصرانية عفيفة الطرف كريمة الاصل · فقد كان النفور مستحكماً في تلك الايام بين ابناء محمدٍ المنتصرين وابناء النصرانية المغلوبين الذين لم ينسوا انهم كانوا منذ عهد قريب اسياد البلاد

خرج من منزله في الحي الشرقي هائماً عَلَى وجهه · فابصر الفجر قد عرّى الارض من لباسها كما يعري النخاس الاماء في سوق الجواري · وشاهد يد الصباح الضئيلة تحول المدينة المهيبة الرابضة في الظلمة الرقيقة الغبراء الى بيوت ودساكر سخيفة مسجونة بين الازقة ·

فسار عَلَى غير هدى يتلهى بافكاره ولا يعلم الى اين تسوقه قدماه حتى شعر بعد تطويف طويل بضنك وتعب · فارجعه الوصب من جو الخيال الى دنى الحقيقة فشاهد نفسه عَلَى ضفاف العاصي قريباً من غابة الحور التي كانت بالامس مسرحاً للفتيات ·

سبحت خيالات الصباح في اوقيانوس الجو · ومدت الشمس يديها بالاف من الاشعة لعناق جسم الارض · فتموجت لجج الاثير بين مد الالوان وجزرها · وبكت الارض شغفاً وسعادة للقاء الشمس فتلألأت دموعها نقطاً الماسية من الندى المستلقية عَلَى اراجيح الاوراق والبراعم · وبسطت الظلال طنافسها المخملية تحت اروقة الاشجار وهب النسيم عليلاً متدفقاً آتيا بسرعة من الغرب كساعي بريد مستعجل فأبلغ رسائله العطرية المرسلة من القمم الى السهل فطيبت باريجها الافاق · فلما تنشقت البلابل رائحتها ناغت وسبحت باصواتها فهزت اشجار الحور رؤوسها بعظمة وسُمعت في حفيفها انّات طرب وحنين كأن في اصولها تحت الثرى روح طروب ولوع بالغناء يصرخ مستعيداً النشيد ويستحلف الشادي ألاّ يكف

اما العاصي فكان يجري في منحدره متدفقاً بسرعة وقد نشطت مياهه وهرعت في جريها تزاحم نفسها كأنها فرس كريمة تجري في المضمار والزبد عَلَى اشداقها · وكان للمياه هنالك خرير وهدير ولاسيما حيث كان العاصي ينقلب ظهراً لبطن منحدراً دفعة واحدة بكل قوته من شلال « خرخر » الجميل مسرعاً بفروغ صبر لتقطع امواجه المسافة الشاسعة التي تفصلها عن احضان حبيبها البحر ·

كل هذا لم يؤثر عَلَى مخيلة الشاعر الذي اعتاد ان ينظم من كل مشهد من هذه المشاهد قصائد يرتها بل نظر الى الطبيعة بعين غير مبالية · ثم قصد غابة الحور متلصصاً متحذراً وهو يحسب انه سيباغت الفتيات

هنالك كعهده بالامس ·

كان المكان خالياً خاوياً قد تربعت فيه الظلال تحت رواق كثيف · وخيل لديك الجن انه يسمع في حفيف الغابة ضحكة مستهزىء · فتنفس الصعداء كان صدره بركان يقذف الحمم والصخور · وجلس يائساً في طرف الغابة تحت شجرة مزهرة من الزيزفون يراود ازهارها النسيم ويغتصب منها اريجها العذري معتدياً عَلَى حيائها بين اشجـار الصفصاف المتفلية في الشمس عَلَى اقدام العاصي ·

وبعد استراحة هجعت فيها نفسه الظامئة هبّ قلبه مذعوراً عَلَى صوت فتيات سائرات بالقرب يتكلمن وسمع ديك الجن قهقهتهنّ وكلامهنّ فاصاخ اليهنّ بكل جوارحه وقد خفق قلبه وكاد ان يثب من بين اضلاعه

— اضحكنَ معي يا صبايا عَلَى ورد · فأنها لم تنم ليلة البارحة

— لعلها عاشقة ···

— ألم ترين انها لم ترقص البارحة ولم تغنِ بعد ذهاب ذينك الشابين الشاعر ورفيقه اللذين تطفلا علينا بالامس ·

— اذا كانت قد عشقت فلا حرج · ولاسيما ان ذلك الشاعر ورفيقه من أجمل شبان حمص · وقد ضُرب بهمـا المثل · ولكنهما يا للاسف مسلمان ·····

— كفاكنّ هذراً يا صديقات · وهلمّ بنـا الى النهر فقد صهرت

ابتعدت الاصوات في جهة اخرى . لان الفتيات ذهبن الى مكان بعيد عن الشلال الصغير ليستحممن

فلبث ديك الجن في مخبئه هنيهة يتلمس فيها افكاره وعواطفه ويسائل نفسه .— أصحيح يا ترى ؟ أصحيح ان ورداً تميل اليه . أم ذلك مزاح من الفتيات ؟

وبعد ان شبع من الاماني وتعب من حسبان ما يتوقع نهض وترك غاية الحور قاصداً المكان الذي ذهبت اليه الصبايا . فانبسط امامه مرج تتدلى اقدامه الى النهر . ورأى على منتهى ضفة العاصي شجيرات من الصفصاف تغطس اغصانها في الماء . فسار مستتراً بها حتى طرقت اذنه رنة ضحك الفتيات . فالتصق بالارض مختبئاً وأجال طرفه في ما حوله .

كان المرج يرتجف شوقاً وهياماً ويقبل الشمس والهواء والسماء والنهر —وقد سال مترقرقاً لا أثر فيه لشكوى الخرير — تتنعم مياهه متقلبة في عناق متوهج .... في عناق من ؟

في عناق فتيات سجد الحسن تحت اقدامهن وتسارعت ذرات الاثير النيرة لشم اجسامهن بكل شفة

مثل لعين الشاعر هنا مشهد من أجمل المشاهد وأجلها واعظمها .. ألا هو امتزاج الانسان بالطبيعة .

أجسام جميلة ناصعة باهرة . وشباب زاهر . وسرور خالص — هذا ما قدمه الانسان .

نور متدفق منشط · وماء مترقرق · وربيع يغمر الكون — هذا ما قدمته الطبيعة ·

تمازجت هذه كلها في منظر واحد وتحركت مشاهد متقلبة امام عيني ديك الجن · فحدد بصره وارسل له العنان مقلباً اياه بين تلك الاجسام الوردية المتنعمة في عناق الماء حتى عرف بينها قامة حبيبته ورد · فاستقر عليها كما يستقر الطائر عَلَى شجرة وحيدة في القفر ·

اجتلى بصر الشاعر محاسن حبيبته المتعددة عن بعد وتصورت له بازاء هذا المشهد جنة الخلد بافراحها فتفل عليها مفضلاً هذا المنظر وأثرت الصور الشبيهة بالرؤى امامه عَلَى مخيلته فتجرد عن كيانه الجسدي وسارت روحه محلقة فوق النهر حتى بلغت الفتيات المستحمات فامتزجت بهنّ مشاركة اياهنّ في الضحك واللعب ·

وكان سرب الفتيات يستحم في الماء بلصق الشاطىء تحت اغصان الصفصاف المخيمة فوق الماء فظهرن للعين كالزنابق المائية البيضاء · وكنّ لا يتجرأن عَلَى التوغل في النهر لجهلهنّ السباحة · ولكن ورداً انفصلت عنهنّ بعد هنيهة مستلقية عَلَى ظهور الامواج لعلمها بالسباحة بعض العلم

وبينما روح الشاعر تسبح متنقلة من جسم الى آخر اذا بها خفقت مرتاعة في جسده وقد سمعت صوت استغاثة أليمة صادرة من النهر تلتها اصوات الفتيات مستنجدات · فتطلع ديك الجن فرآهنّ قد هرعنَ الى الشاطىء

من مخبئه وأجال نظره الحاد فرأى عن بعد بسداً يعارك مياه النهر وقد اوشكت ان تبتلعه . فعرف به جسد ورد الناصع وقد تغلبت عليه امواج النهر الغدارة .

كالشهاب المنطلق من سجن الابدية قذف ديك الجن نفسه في النهر وكان سباحاً ماهراً فخاض عباب الامواج غاطساً المرة بعد الاخرى حتى خرج بعد دقيقة من بين الامواج الفاغرة فاها وعلى يديه جثة ورد بلا حراك ثم سبح بصعوبة حتى بلغ الشاطىء فوضع الجسد العاري الجامد على عشب النهر وأكب فوقه لا يجسر على لمسه وهو لا يعي ولا يدرك ماذا حدث ولا يعلم ماذا يجب ان يفعل .

انبسط جسم ورد الناصع على المرج بلا حراك وقد ازدادت نصاعته . وكان كل شيء ما حوله يتحرك . فالفراشات والعشب والدود على الاشجار والبراعم واشعة الشمس كل هذه كانت تتحرك . وكانت عملية الحياة تتم في كل ذرة من الطبيعة الا في ذلك الجسم البض البارد .

نظر ديك الجن الى اساريره ذلك الوجه المتجمدة والى تقاطيع ذلك الجسم الهامدة ثم مد يده بتأنٍ ولمس بها صدر الفتاة كأنه يلمس بذلك قدس الاقداس فأحس ببرودة اخترقت عظامه وكادت ان تصل الى روحه

وكانت الفتيات يلبسن ثيابهن مختبئات بين فروع الاشجار وقد عقد الرعب لسانهن فلم يجسرن على الظهور والكلام

فسجد ديك الجن على ركبتيه امام الجثة كما يسجد المؤمن لمناجاة

خاشعة امام ربه وتلت روحه صلاة حارّة لم تسعها الالفاظ البشرية . ثم تصاعد من قلبه نداء أليم لاعج يشبه زمجرة العواطف تجسم فيه كل معنى الحزن والتضرع . ثم لم يطق الاحتمال فانحنى عَلَى الجثة يبكي

وكأنّ دموع العاشق الحارة اخترقت دروع الموت الباردة وسقت فتيلة الحياة المنطفية بزيت حار ثم اشعلتها فسرت الحرارة في عروق الغريقة فبدأ القلب ينبض نبضات خفيفة . وبعد هنيهة فتحت ورد عينيها الكبيرتين فرأت الشاعر يبكي فوقها فتململت تململ من يتخلص من وثاق ثم رفعت رأسها بصعوبة واجالت نظرها في ما حولها فعرفت ماذا جرى وفهمت ان الشاعر الحزين هو منقذها . فتفرست فيه بعطف وحنان غير مكترثة بصديقاتها اللواتي اتينَ يسترنها بالثياب . وبكل ما في القلب من قوى الحب ومعرفة الجميل والميل الى الحياة مدت يديها اليه مداً بطيئاً وقلبها يخفق كعصفور خائف والقت بنفسها عليه

وهنالك لاول مرة ضمها ديك الجن الى قلبه . وهنالك في عناق اشعة الشمس المخدرة شرب كأساً طافحة من قبلاتها وهو يسر اليها كلمات الحب والهيام . وهنالك تعانق الاسلام والنصرانية في شخصين محبين هازئين باجيال من الخرافات والضغائن والشرائع الفاسدة .

. . . . .

لم يذع في حمص خبر كان اكثر دهشة واعظم غرابة من خبر حب